

ابن بطوطة

رحلة الحج الأولى حولته إلى أمير الرحالة المسلمين

أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ اللَّوَاتِي، المعروفُ بابْنِ بَطُوطة، وُلِدْتُ فِي مَدِينَةِ طَنْجَةَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ عَامِ 703 هـ، أَيَّ فِي عَامِ 1304 م، عَمِلْتُ مُؤَرِّحًا وَقَاضِيًا وَفَقِيهًا، وَاشْتَهَرْتُ بِكَثْرَةِ التَّرْحَالِ حَتَّى أَطْلُقُوا عَلَيَّ لِقَبِّ أَمِيرِ الرَّحَالَةِ الْمُسْلِمِينَ.

عِنْدَمَا بَلَغْتُ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ أَيَّ فِي عَامِ 725 هـ - 1325 م، ذَهَبْتُ لِأَدَاءِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، فَقَدْ خَرَجْتُ مَعَ قَافِلَةٍ لَمْ أَعْرِفْهَا بِشَكْلِ مُطْلَقٍ، كَمَا أَنِّي لَمْ أَسْتَقِرَّ بِهَا؛ إِذْ كُنْتُ أَتَقَلُّ مِنْ مَرَكَبٍ إِلَى آخَرَ، وَكَانَ الدَّفَاعُ وَرَاءَ تَنَقُّلِي هَذَا حُبِّي التَّعَرُّفَ إِلَى النَّاسِ وَمَعْرِفَةَ طِبَاعِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى رَغْبَتِي فِي التَّعَرُّفِ إِلَى الْعَادَاتِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي



رَأْسِي طَنْجَةَ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِكُلِّ مَنْ سَبْتَهُ وَجَبَلِ طَارِقٍ، وَصَادَفْتُ خِلَالَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ كَلَامًا مِنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ لُبِّ، وَأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عَاصِمٍ، وَالْقَاسِمِ الشَّرِيفِ، وَأَبِي الْبَرَكَاتِ بْنِ الْحَاجِّ.

وَفِي الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمٍ لِسَنَةِ 753 هـ بَدَأْتُ رِحْلَتِي الثَّالِثَةَ إِلَى السُّودَانِ، حَيْثُ انْطَلَقْتُ مِنْ مَدِينَةِ سِجْلَمَاسَةَ. وَبَعْدَ مُرُورِ أَقْلٍ مِنْ شَهْرٍ وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ تَغَازَى الْمَلْقَبَةِ بِقَرْيَةِ الْمَلْحِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أُبَيْتَهَا مَبْنِيَّةٌ مِنَ الْمَلْحِ، فَأَقَمْتُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ أَيَّامًا، ثُمَّ أَكْمَلْتُ مَسِيرَتِي فِي الصَّحْرَاءِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الرَّحْلَةُ مَلِيئَةً بِالْمَخَاطِرِ وَالْمَشَقَّاتِ، حَتَّى نَزَلْتُ فِي السُّودَانِ، ثُمَّ انْتَقَلْتُ إِلَى مَالِي ثُمَّ إِلَى تَبُوكُو، ثُمَّ إِلَى تَكْدَا، حَيْثُ وَصَلْتُ إِلَى نَهْرِ النِّجْرِ، وَانْتَهَتْ رِحْلَتِي هَذِهِ فِي عَامِ 754 هـ، أَيَّ أَنهَا اسْتَعْرَقَتْ قَرَابَةَ عَامَيْنِ فَقَطْ.

«تُحْفَةُ النُّظَارِ»

خُلَاصَةٌ مَا جَمَعَهُ ابْنُ بَطُوطة فِي رِحَالَتِهِ حَوْلَ الْعَالَمِ

نَظَّمْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْقِصَائِدِ الشُّعْرِيَّةِ فِي مَدْحِ مُلُوكِ وَأَمْرَاءِ الْأَمْصَارِ الَّتِي زُرْتُهَا؛ إِذْ كَانَتْ هِبَاتِهِمْ مَصْدَرًا يُسَاعِدُنِي عَلَى مُوَاصَلَةِ رِحَالَتِي وَأَسْفَارِي.

وَبَعْدَ عُمُرٍ قَضَيْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالتَّرْحَالِ عُدْتُ إِلَى مَسْقَطِ رَأْسِي، فَجَمَعْتُ تَفَاصِيلَ رِحَالَتِي فِي كِتَابِي «تُحْفَةُ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ».

يَتَمُومُونَ بِهَا. وَخِلَالَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ لَاحَظْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْحِرْفِ يَنْزِلُونَ ضُيُوفًا عَلَيَّ زُمَلَانِهِمْ بِالْحِرْفِ، فَمَثَلًا الْفُقَهَاءُ يَنْزِلُونَ عَلَيَّ الْفُقَهَاءَ، وَالشُّعْرَاءُ عَلَيَّ الشُّعْرَاءَ وَهَكَذَا، وَبِهَذَا كَانَتْ رِحْلَةُ الْحَجِّ بِالنُّسْبَةِ إِلَى نُقْطَةِ التَّحَوُّلِ فِي حَيَاتِي، حَيْثُ لَبَسْتُ مَلَابِسَ التَّرْحَالِ وَعَزَمْتُ عَلَى التَّجَوُّلِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ كَانَتْ رِحَالَتِي تَتَجَلَّى فِي ثَلَاثِ رِحَالَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ؛ فَقَدْ بَدَأْتُهَا فِي شَهْرِ رَجَبٍ لِعَامِ 725 هـ أَيَّ 1325 م، وَخِلَالَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ زُرْتُ كَلَامًا مِنْ سُومَطْرَةَ وَالْهِنْدِ وَكَذَلِكَ الْيَمَنَ وَبَعْضَ بِلَادِ الْعَجَمِ، ثُمَّ زُرْتُ الْعِرَاقَ ثُمَّ الشَّامَ، ثُمَّ مِصْرَ، وَوَصَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فِي 22 مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ لِعَامِ 749 هـ، حَيْثُ مَكَّنْتُ بِهَا الْحَجَّ فِي أَنْتِهَاءِ مَوْسِمِ الْحَجِّ. وَبَعْدَ أَنْتِهَاءِ مَوْسِمِ الْحَجِّ انْتَقَلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ ثُمَّ اتَّجَهْتُ إِلَى الْقُدْسِ، وَبَعْدَهَا إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَنْ طَرِيقِ مِصْرَ، حَيْثُ وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسِ الْمَغْرِبِيَّةِ عَامَ 750 هـ - 1349 م. وَقَدْ اسْتَعْرَقَتْ

هَذِهِ الرَّحْلَةُ مِئَةَ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا حَجَّجْتُ خِلَالَهَا مَا يُقَارِبُ 6 مَرَّاتٍ. وَالرَّحْلَةُ الثَّانِيَّةُ كَانَتْ فِي مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ بِالْأَنْدَلُسِ، حَيْثُ انْطَلَقْتُ مِنْ مَسْقَطِ